قصة

ليلة فى السجن

د. حسين مؤنس

واستمر هذا المولد إلى ما بعد منتصف الليل . هاصت الدنيا وانقلب السجن مهرجانا عامرا بالمرح والتسلية . ثم صاح شاويش : جاء الخبز ! وبالفعل دخلت عربة يجرها رجلان ملأى بالخبز « البائت » المتعفن ، وتقدم مصطفى كامل – ولا أعرف له اسما إلا هذا – ونظر داخل العربة ثم قال بكل ترفع وشمم للرجلين اللذين يجرانها :

– هل هذا خبز يقدم للمجاهدين فى سبيل الوطن ؟

وبكل تحد قال الرجل :

– هذا هو الذى عندنا للمساجين أمثالكم . هذه بقية أكل جناب الكونستبلات وسعادة الضباط وحضرات الأومباشية والشاويشية . ماذا تريدون أيها الصياع ؟ بسكويت أو عيش فينو مثل الباشوات ؟ . .

قال مصطفى كامل :

– اخرس ياوقح . خذ عربتك واخرج من هنا . هذا طعام قبران لا طعام آدميين . . اذهب بعربتك . .

وأفاق مجاهد من نومه وقال :

– وفيما إيه يا حضرة الاستاذ ؟ نحن جوعانون ونريد أن نأكل أى شىء . .

فقال مصطفى كامل

– ثم تقول إنك ابن صاحب أكبر مخبز فى هذا الحى ! . . احترم نفسك يا أخ . .

وقلت مجاهد :

– عيب يا مجاهد . . هذا خبز سيىء جدا فعلا . .

ومضى رجال الخبز وظلنا هلكى من الجوع . . وعاد مجاهد إلى النوم . تحوّى لا أدرى كيف . . ونام ، وتعالى غطيطه ، واتخذت ظهره مسندا وحاولت أن أغفو .

وكان الأولاد قد تعبوا من الكلام والضحك والمونولوجات . فبدأ السكون يخيم على ذلك الجمع الحاشد . ونظر أومباشى إلى الجمع وقال :

– هاهم أولاء قد تحمدوا . . اذهب أنت فاسترح قليلا يا سعادة الكونستابل . . وذهب مصطفى كامل . وكان يجلس إلى جوارى . هب واقفا على قدميه وقال :

– لا أحد يذهب من هنا . هذه نوبة الكونستابل ونوبتك . ولا أحد منكم ينتقل من هنا وإلا حطمنا الخافظة على رءوسكم .

وكأنما خف مصطفى كامل على نفس الكونستابل حلوف . فاقترب منه وقال بصوت خفيض :

– ما حكايتك أيها الشاب ؟ . . إن وجهك صغير ولكن ملابسك عجوز . أنت رجل رسمى فى كل شىء . من تكون ؟

– أنا لا شىء . . أنا خادم لمصر .

– إذن فلماذا تلبس هذا الزى المضحك : بدلة سوداء وصديرى مخطط وطربوش طوله متر وحذاء أسود لامع مغطى بالخبز . وعصا فى يدك يبدو أنك ورثتها عن جدك ؟ . .

– هذه ملابس الوطنيين الأحرار . هذه ملابس الحزب الوطنى . وأنا حزب وطنى .

– ومالك إذن وهؤلاء الوفديين .

– إنهم ليسوا وفديين . . انهم وطنيون .

ولكنهم يهتفون للنحاس باشا .

– بعضهم فقط . . أما الباقون فهنافهم لمصر وحدها . . هذه أمور أنت لا تفهمها لأنك من جنود الاستعمار . .

فقال الكونستابل حلوف :

– من قال لك إننى من جنود الاستعمار ؟ أنا من مالطة . وهى مستعمرة بريطانية مثل مصر .

– مصر ليست مستعمرة ولن تكون مستعمرة .

– حماية إذن ؟

ولا حماية . مصر حرة مستقلة . ولكنكم تسلطون عليها ملكا تركيا غاصبا وتحكمونها بواسطة مجموعة من الباشوات الأجانب عن مصر مثلك . .

– أنا لست أجنبيا عن مصر . أنا مالطى مولود فى مصر . وهأنذا أتكلم العربية مثلك . .

– إذن فلماذا تخدم الاستعمار . . ؟

– نحن فى مالطة وطنيون مثلكم نطالب بالاستقلال ولكننا فقراء نريد أن نعيش . ووجودنا هنا رحمة لكم . ولو كان رئيس النوبة الميجر ديكسون لما سمح لكم بهذه العربدة . .

– نحن لا نعربد . نحن نجاهد . .

وقطعت هذا الحوار اللطيف ضوضاء قادمة من بعيد .

وظلت نقترب حتى وقفت على باب الخافظة – وأنا أراها – عربة كارو محملة بخبز تفوح رائحته الجميلة فتحيى النفوس وتوقظ النائمين . فهمت للحال أن هذا خبز الحاج أمين مجاهد . وهتف أحد الشويشية :

– العيش الخترم وصل . . يا سلام يا جدعان . . هذا ليس خبزا . إنه بسكويت . .

وكعادته نهض مصطفى كامل وقال :

– هذا الخبز للمجاهدين فقط .

– وقال أحد الرجال الذين أتوا مع الخبز :

– هنا خبز للجميع من الخافظ إلى الشاويش . الحاج أمين أمر بأن نعمل الخابز كلها لكم وحدكم : عملنا ٣٠٠٠ رغيف . .

وفى لحظات كان الخبز قد توزع على الناس أجمعين . وكان خبزا ممتازا حقا صنع بحب ورغبة فى العطاء . وكان أشد المقبلين عليه العساكر . وأخذ الكونستابل حلوف رغيفا ساخنا ومضى يأكل فى هدوء إلى جانبى . ثم قال لى :

– خسارة . . إن بلدكم طيب ، ولكن . .

– ولكن ماذا ؟

لكنكم لا تحسنون استخدامه . .

– الإنجليز !

– لا . . ليس الإنجليز فقط . بل أنتم أيضا . . الإنجليز لا يفسدون إلا ما يقبل الفساد . .

– الملك . .

– طبعا . . ولكن ليس الملك وحده . بل شلة الباشوات من حوله . فهذا الرجل كان لا ينبغى أن يدرك أنه ملك على بلد مهم مثل هذا . . أتعرف أين هو الآن ؟ فى الأقصر . . إنه يلعب الشطرنج مع أمير إنجليزى يسمى الدوق أوث كنوت . ومعهم المستر سمارت السكرتير الشرق للسفارة . إن الذى يحكم مصر اليوم موظف إنجليزى من الدرجة العاشرة يسمى المستر سمارت ، إنه أفاق وشرير . عملت فى حراسته مدة سنة . هذا هو الذى يحكم مصر اليوم ، رئيس الوزراء يستشيره فى كل شىء ، لو عرفت مقادير الهدايا التى يتلقاها هذا الرجل من أصحاب الحل والعقد ، لقد أصبح موسرا جدا .

وبعد لحظة صمت :

– خبز جميل . . ما أعظم قمح مصر . . لقد عاشت روما قرونا على قمح بلادكم .

وفى هذه اللحظة استيقظ مجاهد ، وصاح لأول ما فتح عينيه :

– تأكلون ولا توقظوننى ؟ . .

– إنه خبز بيتكم . .

– وأين نصيبى ؟ . .

– ها هو ذا . . حجزت لك ثلاثة أرغفة . .

وفى لحظات كان قد غرق إلى أذنيه فى الأكل . . وصاح صائح :

– أكلتم الخبز ولم تنتظروا الإدام . .

– أى إدام ؟ . .

– الحاج خميس البقال أرسل لكم عربة محملة بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية ! .

وبدأت عملية التوزيع من جديد . قام العساكر بالمهمة . نقلوا من جنود إلى سفرجية ، كانوا يعطون كل واحد ما اتفق : قطعة جبن أبيض أو رومى أو حلاوة أو زيتونا . لابد أن الحاج خميس قد أفرغ مخازنه . . ليكرم المجاهدين . .

● ● ●

وفى أثناء الهدوء الذى أعقب عملية التوزيع ، وقفت بباب الخافظة سيارة نزل منها رجل محترم جدا . ثم تقدم وقال للأومباشى الذى يرأس حرس المدخل . .

– أنا إسماعيل حسن وكيل أعمال المرحوشى بك . .

– أهلا وسهلا . .

– عندكم هنا حسام الدين بن إبراهيم المرحوشى بك . لقد أصدر الخافظ أمرا بالإفراج عنه . ها هو ذا . . ونظر الأومباشى فى الورقة نحو خمس دقائق فى قراءتها . ثم قال :

فعلا هى من سعادة الخافظ . . يا شاويش حسنين . . ناد على حسام الدين إبراهيم المرحوشى . . فقال الرجل الأنيق الخترم :

– أنا أناديه لأنه يعرف صوتى . .

ودخل حتى صار على باب الفناء الذى احتشدنا فيه ، ثم نادى بأعلى صوته :

– حسام الدين بك المرحوشى . .

وهنا التفت له مصطفى كامل وقال :

– وهنا لا يوجد بكوات يا حضرة . . هنا مجاهدون فقط . .

فاحتد الرجل قائلا :

– ولكن هذا ابن إبراهيم بك المرحوشى . .

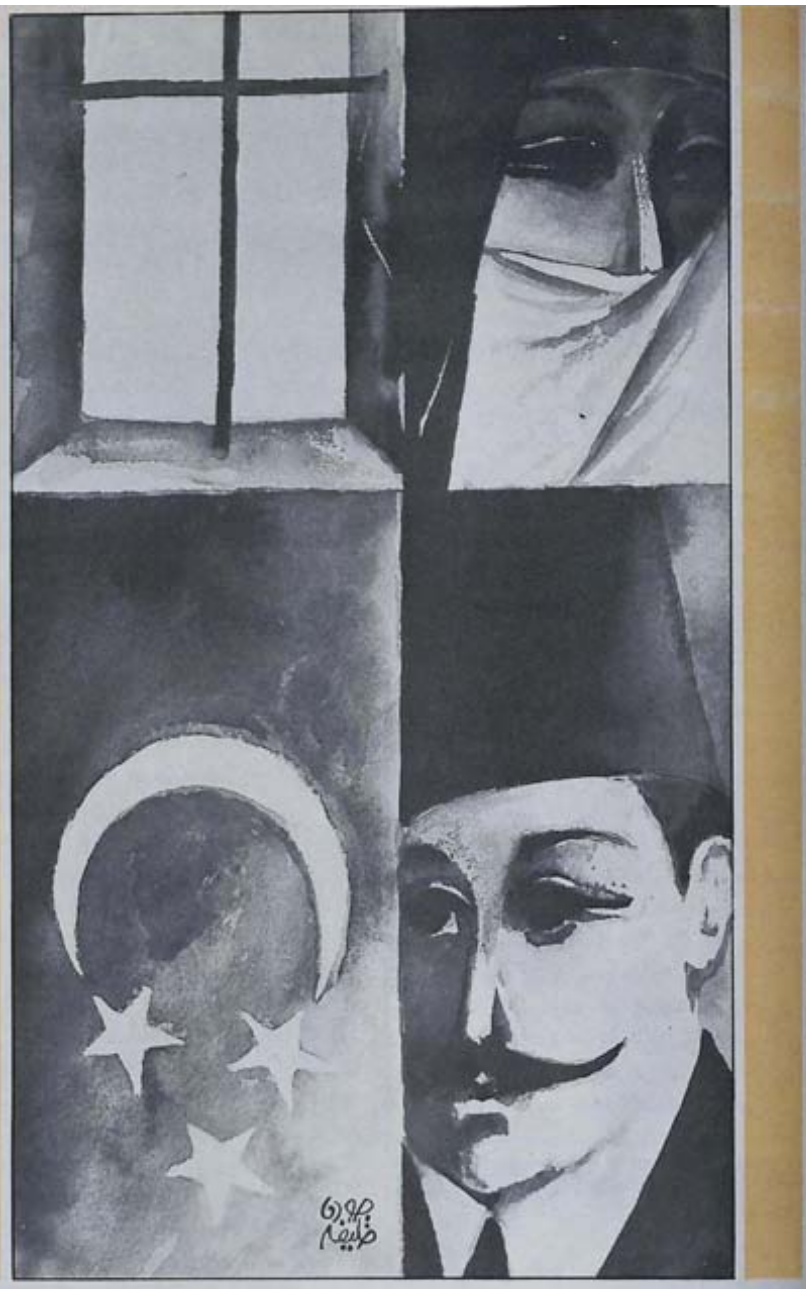

– ولو . . إنه مجرد طالب معنا فى الحديوى إسماعيل . .

ولم يلبث حسام المرجوشى أن حضر وقال للرجل :

– أهلا يا إسماعيل . . تأخرتم على . . كدت أهلك هنا . .

– ولا مؤاخذة يا سعادة البك . . الباشا جاب لك إفراج من سعادة المحافظ . . اتفضل معى .

وتقدم مصطفى كامل . ووقف مستقيما كالسيف . ووضع سبابته وابهامه فى جيب الصديرى وقال :

– لن يخرج وحده . . إما أن يشملنا الإفراج جميعا أو نظل هنا جميعا . .

ثم قال يخاطب حسام المرجوشى :

– وأنت يا حسام . هل يرضيك أن تترك إخوانك فى السجن وتخرج بالوساطة ؟ . . بوساطة صنيعة من صنائع الإنجليز .

وبعد لحظة قال حسام :

– لا . . عندك حق . . أنا لن أخرج وحدى أبدا . . أنا مع إخوانى . .

وهتف طالب :

– عفارم عليك . . نحيا مصر . .

وتردد فى المعسكر كله هتاف : نحيا مصر . . نحيا مصر . . نموت ونحيا مصر ليسقط الإنجليز . .

وعادت المظاهرة إلى أعنف مما قامت . فقال الأوباشى يخاطب وكيل المرجوشى :

– كده يا أخ . . جئت تكحلها فأعميتها . .

وقال حسام :

– أين هذا الأمر يا حضرة الأوباشى ؟

– ها هو هذا فأخذه حسام ومزقه إربا . وقال لإسماعيل :

اسمع يا اسماعيل . أنا لن أخرج بوساطة . قل هذا لوالدى . وإذا كان يريد أن يتوسط فليتوسط لنا جميعا . والا فليرسل لنا بطاطين . .

فإن الدنيا هنا برد .

– حاضر يا سعادة إليك . مسافة الطريق وأعود إليك بالرد . ولم تنقض دقائق حتى سمعنا ضجة أخرى وشممنا رائحة شواء . ثم سمعنا صوتا جهوريا يقول :

– أنا الحاج عنتر الكبابجى . . سمعت أن أولادنا هنا مسجونون وأن المحافظ الإنجليزى رفض أن يقدم لهم طعاما . فاشتغلت أنا ورجالى وأتينا للمحافظة كلها بكباب وكفتة .

وقال الأوباشى :

– وللشاويشية أيضا ؟ . .

– نعم للمحافظة كلها . إلا المحافظ والكونستابلات الإنجليز .

وقال مصطفى كامل :

– لا ياحاج عنتر . ليس كل الكونستابلات . معنا هنا كونستابل وطنى يحب المصريين .

– معقول فيه كونستابل وطنى . .

– أيوه يا حاج . إنه ليس إنجليزيا . إنه من مالطة . وبلاده مستعمرة . . وقد وقف إلى جانبنا .

– طيب . وحضرتك . . ماذا تكون . .

– أنا مواطن مصرى مجاهد فى سبيل الوطن .

وقلت :

– إنه الزعيم هنا . .

فغضب وقال :

– لا زعيم إلا مصطفى كامل . . هنا كلنا إخوة وراء الزعيم الأكبر . .

وقال طالب :

– ولكنى وفدى . . أنا عضو اللجنة المركزية للطلبة الوفديين .

فقال مصطفى كامل بكل رزانة . .

– وفدى وسعدى هذه خارج السجن . أما فى السجن فكلنا مواطنون مجاهدون وحزب وطنى . ولنكن يدا واحدة ولا نختلف .

وقال الحاج عنتر :

– الأستاذ عنده حق . . تكونون يدا واحدة تأكلون كبابا . أما إذا اختلفتم وقلتم وفدى وحزب وطنى وسعدى وعدلى لما فيش كباب .

وهتف طالب :

– كلنا حزب وطنى . . يحيا الحزب الوطنى .

وإكراما للكباب سكت عضو اللجنة المركزية للطلبة الوفديين .

وكالعادة صحا مجاهد من نومه وقال :

– ماذا جرى لكم ياناس ؟ تأكلون وتنسونى . .

لا يا مجاهد لم ننسك . . وهذا نصيبك أحتفظت لك به . .

ونظر الحاج عنتر إلى مجاهد وقال :

– الله . . مجاهد ابن الحاج أمين مجاهد سيدنا وسيد الخلة كلها يا ألف ليلة بيضة . يا ألف ليلة بيضة ! هات يا ولد رطلين هنا لابنا مجاهد . .

ومع أن مجاهد كان قد أكل إلى الآن أرغفة ثلاثة وجبنا وحلاوة وزيتونا . . فإنه انقض على الكباب يلتهمه كأنه لم يأكل من أسابيع . .

وقال الكونستابل حلوف وهو يأكل :

– حاجة عظيمة يا حاج . . فى حياتى لم أر بلدا عظيما مثل بلدكم ! . .

البلد كلها ساهرة تحرس أولادها المساجين فى المحافظة . .

– دى مصر أم الدنيا ياحضرة . . مصيبها الملك والانجليز ، الله يخرب بيوتهم . يا سلام يا خواجة لو ماكنتش إنجليزى .

وقال مصطفى كامل :

– ألم أقل يا حاج إنه ليس إنجليزيا .

● ● ●

ثم هدأ الجو شيئا فشيئا . هذه الأطعمة التى ملأت البطون بعثت الخدر فى الأجساد والنعاس فى الجفون . فنام كل منا حيثما اتفق . استدفأت بمجاهد وضممت على ثيابى ونمت . حتى العساكر ناموا والكونستابل أيضا .

وانقضت ساعة أو نحوها ، ثم سمعنا أصواتا ، ففتحت عينى ونظرت إلى مدخل الفناء . رأيت شاويشا يجرى ويقول :

– البطاطين وصلت .

وشيئا فشيئا استيقظ الجميع وبدأ اللغط ، ودخل عدد من الرجال يحرسهم البوليس . كانوا يحملون أكداسا من البطاطين ويقولون :

– أرجوكم ، كل واحد يقعد مكانه . الباشوات أرسلوا لكم ما يكفى من البطاطين . . وانبرى مصطفى كامل يقول :

– ليس فى البلد باشوات ، ونحن لن نأخذ شيئا من خدم الملك والانجليز . .

خذوا بطاطينكم وعودوا من حيث أتيتم .

فقال أحد الرجال :

– لا مؤاخذة يا حضرة . . هذه البطاطين ليست من الباشوات ، كلنا نعرف أن الباشوات لا يعطون شيئا . إنهم يأخذون فقط . لهذا هم باشوات . ولكن هذه البطاطين من مثل آبائكم : المرجوشى بك والحاج الراعى والحاج المناويل وغيرهم . كل تجار الغورية والسكة الجديدة والأزهر تجمعوا وأرسلوا لكم بطاطين تكفى المحافظة كلها . . وهؤلاء ناس وطنيون ولا يجوز أن ترد هديتهم .

وقال مصطفى كامل :

– إذا كان هذا هكذا فلا بأس .

والذى أدهشنى أن عملية التوزيع تمت بكل هدوء . لا فوضى ولا تزاحم ولا نزاع . كل منا تسلم بطانيته بما فى ذلك العسكر والأومباشية والكونستابلات . وخرج الرجال والتففنا فى بطانيات كالحرير ، واستسلمنا للنوم . .

بعد قليل بدأت طلائع الفجر ، ولكن جمعنا الحاشد كان قد أغرق فى النوم ، وانقضت ساعة أو نحوها ، ثم افاقت على رائحة جميلة رائحة فول مدمس ، وسمعت حديثا بين أحد الشاويشية وامرأة ، ثم قال الشاويش : اتفضلى ياست اتفضلى . .

وتفضلت الست . كانت امرأة بلدية ذات طول وعرض ، وكان يقف وراءها رجلان ، وقالت :

– عوافى عليكم . .

ورد عليها بعضنا ، فعادت تقول :

– أنا أم عطية

– بتاعة القول ؟ . .

بتاعة اللوز يا حضرة . . وبعدين أنا مش بتاعة حاجة . . أنا معلمة قد الدنيا وعندى أربعة مطاعم ويعمل عندى خمسون رجلا . . وأنا كنده بالصلاة على النبى جايبالكم الفطور . .

جايبلكم فول ، اللى عاوز بالزيت يأخد واللى عاوز بالسمن عندنا خير كثير ، واحنا مش أقل وطنية من المرجوشى والراعى والحمصانى ، جايبالكم فول وطعمية وعيش توكل مصر كلها . .

وقال الأومباشى :

– واحنا كمان يا ست ؟ . .

لأ . . أنتم لأ . . أنتم بتخدموا الإنجليز ، وأنتم تضربون أولادنا بالشوم وتجيبوهم السجن . .

– والله ما احنا يا ست أم عطية . . دول بلوك الغفر . . احنا عساكر مساكين ، بيجيبولنا أولادنا دول ويقولوا : خليهم عندكم . . هل نستطيع أن نرفض ؟ . . دا احنا غلابة يا ست ، ولو سمحوا لنا كنا نفرغ رصاص بنادقنا دى فى الانجليز .

– كلام فارغ . . والوطنى لا يستطيع أحد أن يجعله غير وطنى . . هم يأمرونكم وأنتم تنفذون ، وبدونكم ماكانوا ليستطيعوا شيئا . . أنا الفول بتاعى شريف وما يروحش للى يضربوا أولاد مصر . .

فأراد الامباشى أن يظهر بسالته وقال :

– بقى شوف يا ست أم عطية . . أنا ما حدش يكلمنى باللغة دى . وأنا راح أخلى العساكر يطلعوكى بره . .

– وقال الكونستابل :

– لأ يا أومباشى . . ما عندكش حق . . وأنت لست رئيسا هنا . الست عندها حق ، لكنها لا تعرف أننا جميعا عبيد المأمور . . نحن يا ست أم عطية موظفون ننفذ الأوامر غصبا عنا .

ونظرت إليه الست طويلا ثم قالت :

– أنت إنجليزى يا جدع أنت ؟

– لا ياستى أنا مش انجليزى أنا من مالطة ، بلد مسكين زى بلدكم ، وأنا مولود هنا وأعمل كونستابلا . .

ثم وقف فجأة وقفة عسكرية ، وكذلك وقف الأومباشية والشاويشية ونظروا فى اتجاه رجل إنجليزى برقبة ضابط أقبل يسير فى خطوات عسكرية حتى وقف أمام الكونستابل حلوف وقال بالإنجليزية :

– كيف الحال ياكونستابل هاروف

وقالت أم عطية :

– أهو ده الجليزى ابن الجليزى وباين عليه .

والتفت نحوها الضابط الإنجليزى وقال : من هذه ؟ ! . وما هذه العربات والقدرة التى آراها ؟ . .

فقال هاروف :

– هذه سيدة عظيمة تملك خمسة مطاعم ، إنها أم عطية وقد أتت لهؤلاء التلاميذ بإفطارهم .

– هذا ممنوع ، وهؤلاء سجناء ، ولا يمكن أن يدخل لهم أكل إلا بإذن الحكومة ، ألا تعرف ذلك ياكونستابل ؟ ! .

– أعرف يا ميجر ديكسون . . ولكن لا المحافظة ولا الحكومة سألت عن هؤلاء الأولاد من الصباح . . هل نتركهم يموتون جوعا ؟ . .

– لماذا لم تتصل بالمحافظ ؟ . .

– المحافظ لا دخل له بذلك . .

– والحكمدار ؟ . .

– تقصد الأمير الاى سليم زكى ، لا نعرف أين هو . . من الصباح نبحث عنه دون أن نعثر له على أثر .

– لقد كان عندى من ساعة . .

– هذا هو كل عمله . . أن يكون على بابك . . أما هؤلاء المساكين فلا يسأل عنهم أحد . وحضرتك تعرف : السيربرسى لورين المندوب السامى مسافر فى قبرص مع الليدى ستانيوب .

– هذه أسرار لا ينبغى أن تقال فى الطريق .

– هذا منشور فى الإجيشان جازيت يا حضرة الميجر . . والمستر سمارت الذى يحكم مصر موجود فى أسوان يلعب الشطرنج مع الملك .

وقالت أم عطية :

– بيرطنوا ويقولوا ايه ؟ . .

فترجمت لها ما قال هاروف على قدر ما استطعت . فقالت :

– دول بسلامتهم اللى حاكمين البلد ؟ أمال فين اسم الله عليه النحاس باشا ؟ . .

فقال مصطفى كامل :

– فى الأقصر يا حاجة . . مادام الملك فى أسوان يبقى النحاس فى الأقصر . والمندوب السامى فى قبرص .

– والشعب فى التخشيبة وباب الخلق .

وقال الميجر ديكسون :

– أريد أن تبعدوا هذه السيدة من هنا . .

ونقلت لها ما قال فقالت :

– شوف اسمع يا خواجة أنت . . أنا مفروسة منك ومن أسيادك . . وأنا واقفة على باب المحافظة فى ميدان باب الخلق والميدان ده بتاعنا وأنا أقول لك أبعد عنى وحياة دينى وإلا أطربق برنيطتك دى على دماغك . .

وترجموا له ما قالت مخففا بالطبع ، وقال له هاروف :

– ميجر ديكسون . . أظن أن الأحسن لك أن تتصرف . فإن الحالة طيبة والأمن مستتب والأولاد هادئون . .

ففكر ديكسون قليلا ثم قال :

– إذن أدعك أنت وأنت مسئول . .

– وعندما استدار ليذهب ناداه هاروف وقال :

– أقول إنك لو أفطرت معنا كان لذلك وقع طيب جدا . . هؤلاء الناس طيبون . وهذا أحسن فول فى البلد . . ما رأيك فى أن تصعد إلى مكتبك وتأتيك بإفطارك ونكتب فى التقرير أنك بحضورك هنا ومشاركتك الأولاد فى الإفطار هدأت الحالة

بعد أن كانت خطرة . . أنا متأكد أن المستر سمارت سيسر من ذلك جدا . .

فحك رأسه بعصا ثم قال :

– عندك حق . . ثم إنى متعب . لقد طفت بأقسام القاهرة كلها . .

– وكيف الحال . .

– كل تلاميذ المدارس الثانوية فى السجون اليوم . .

وصعد إلى غرفته وخلفه حرسه . .

وقالت أم عطية :

– تلاته بالله العظيم ما يذوق هذا الفول .

– شوف يا أم عطية . . نحن نريد الإفراج عن هؤلاء التلاميذ . والآن وهو فى غرفته . وعندما يذوق لوزك سيتصل بالحكمدار رسل باشا وسيحصل على الإفراج بدون تحقيق أو ضمانات . .

– يفرج عنهم الأول . .

وقبل أن تفرغ من كلامها دق جرس التليفون فى غرفة معاون المحافظة وجاءت البشرى : لقد رضيت نفس الميجر ديكسون وأصدر أمره بالإفراج بعد الإفطار .

وقال مصطفى كامل :

– أنا لا يفرج عنى ميجر إنجليزى . . وإذا أكل هو من ذلك الفول فلن آكل أنا منه . .

وقالت أم عطية :

– اسمع يا جدع أنت . . أنت باين عليك ابن بشوات . ومنفوخ . . خلينا نوكل الأولاد وخلهم يذهبون إلى بيوتهم . لقد هلكوا يا عينى .

وكان فناء المحافظة قد هاص وماج . ودخل رجال المعلمة بأطباق الفول والخبز . وجعلنا نأكل . ومضى بعضنا يغنى .

وفى أثناء ذلك وقفت سيارة الباشا المحافظ . ونزل منها بقامته القصيرة وطربوشه الأحمر الداكن . سعادته ظل صامتا طوال اليوم حتى أصدر ميجر انجليزى أمره بالإفراج فأتى لكى يبلغنا الخبر كأنه هو الذى حصل على الإفراج . . وقال يخاطب الكونستابل هاروف :

– والله لقد اتصلت بجلالة الملك شخصيا . وتفضل جلالته وتعطف وأصدر أمره السامى . .

فقالت أم عطية :

– يا سعادة المحافظ ولا مؤاخذة . . الكلام ده قديم واحنا عرفناه . واللى جاب الإفراج هو اللوز بتاعى . بسلامته الحواجة اللى كان هنا يادوبك شم رحية اللوز وقال : الحقوق يطبق وأفرجوا عن الاولاد . . تسمح تطلع فى أودنك ونبعت لك طبق لوز محترم وشوية طعمية سخنين عمرك مادقت زيهم . . يا الله يا سعادة الباشا يا الله وخليها على الله . .

وصعد المحافظ إلى غرفته . وبدأ الأولاد يخرجون وهم يهتفون :

– تحيا أم عطية . يعيش لوز أم عطية !

وتنازل مصطفى كامل وأكل طبقا من الفول . ووقف يصلح هيئته قبل أن ينفذ أمر الإفراج . أصلح بذلته وصديريه ورباط رقبته . وأحكم عوج طربوشه . وتأكد من حسن وضع نظارته . حتى أصبح كأنه « مانيكان » موضوع فى فاترينة محل ملابس . فاقتربت منه وقلت :

– أين تسكن يا أخ . .

– فى المطرية . .

– إنك متعب الآن . ومسافتك طويلة . وبيتى هنا على

خطوات . فلماذا لا تأتى وتنام عندى حتى ترتاح . وبعد الظهر تذهب إلى بيتك . أنك تريد أن تطمئن أهلك على سلامتك . .

– أهلى لا يريدون رؤيتى . أبى غاضب على لأننى مجاهد فى سبيل الوطن . بدل أن أصبح زعيما يريد أن أكون كاتبا فى مصلحة البريد مثله .

وكان معظم الطلبة قد خرجوا يهتفون . وكان مجاهد مسكا بذراعى ويقول :

– يا الله يا حسين . نريد أن نفطر فى البيت . .

– تفطر ؟ . . ألم يكفك ما أكلت ؟ . . لقد أفطرت فولا من لحظات . .

– أصل بينا نعد فى كل يوم لينا وقشدة . وعسلا أبيض إلى جانب الفول . ولابد أن أذهب إلى البيت لأفطر . تعال .

– تأتى معنا يا أخ . .

– بس أنا لا أستطيع الإثقال عليكم . حقا إننى لا أدرى إلى أين أذهب . حتى أجرة المقهى لا أملكها . كنت أريد أن أجلس فى كازينو البوسفور أمام المحطة لأعرف الأخبار قبل أن أركب قطار المطرية . . عندى اشتراك .

– تعال معنا . ستخرج بإذن الله .

وسرنا نحن الثلاثة نحو بيت مجاهد فى درب سعادة .

وخلا فناء المحافظة من الطلاب . واستقبلنا الناس فى ميدان باب الخلق استقبال الأبطال . أقبل عشرات البائعين يقدمون بضائعهم على عربات . وأحاطوا بالميدان وجعلوا يصيحون :

– كله مجانا علشان الطلبة . . خيار وخس وخبز وطعمية وبصل ولوم وقباقيب وكيزان ومناديل . . كل شىء مجانا للطلبة فى سبيل مصر .

ومن الباب الخلفى للمحافظة خرج الشاويشة الذين انتهت نوبتهم فى يد كل واحد منهم بقجة أو لفة فيها خبز وفطير وكباب وفول . . رزق العيال . وقال أحد الامناشية . .

– ربنا يجعل المظاهرات كلها خير وبركة .

وفى فناء المحافظة وقف الكونستابل هاروف بعد موتوسيكله . هو الآخر ووضع خلفه صندوقا مليئا بالأطعمة . رزق العيال . كله من المظاهرات . تحيا مصر ! .

ووصلنا بيت مجاهد . استقبلتنا الست نفيسة هانم استقبالا جميلا . قبلت ابنها وقبلتنى وقبلت مصطفى كامل . كان خجلا بعض الشىء . ولكن خجله لم يلبث أن زايله عندما أحس بهذا الحب كله . .

وجلسنا إلى طبلية واسعة عليها أباريق شاى ولبن . وخبز وقراقيش وبسكويت وأطباق بنور فيها عسل أبيض وقشدة وجبن وزيتون . .

ودون أن نفكر جلسنا نشرب ونأكل . إن الشاى الساخن جميل . واللبن أجمل . .

وبينما نحن نأكل وقف مصطفى كامل واستعد للخطابة وسط دهشة نفيسة هانم والخدم :

– أيها المواطنون . يا أبناء مصر ! لقد سجنوكم وعذبوكم وضربوكم وجلدوكم . ولكن ذلك كله يهون فى سبيل مصر . . لقد قضيتم ليلتكم فى زنزانات ضيقة . . ومال على مجاهد وقال :

– بيتكلم عن مين . . ؟ وبيكلم مين ؟ . . ومين همه اللى انسجنوا فى الزنزلخ ٣٠ . واللى انضربوا بالكرابيج ؟ . .

وقلت :

– شوف يا مجاهد يا خويا . . كل واحد فى الدنيا له حرفة وعمل . أبوك يصنع الخبز وأنا أذاكر وأنت تأكل وتنام وهذا تلك هى حرفته : زعيم . شغلته أن يلبس زعيما ويتكلم كزعيم ويخطب كزعيم . . سواء انضربنا أو لم نضرب . . تعذبنا أو لم نتعذب . فهو لابد أن يخطب ويقول ذلك . لو لم يخطب هنا لخطب فى كازينو البوسفور . فى هذه الحالة كانوا سيأخذونه إلى سجن الأزبكية . وهناك يواصل عملية جهاده . . سيأكل كما أكلنا الليلة . وسينام كما استمع الليلة . ولكنه سيظل كما هو . . زعيما من زرطربوشه إلى جزمة حذائه . .

ولم يسمعنى مجاهد . كان غارقا فى القشدة والعسل .

● ● ●

وكنت أعرف ما سيحدث . .

هذا الزعيم لن يعود إلى منزله لأنه زعيم زائف وأبوه لا يريد زعماء زائفين . إنه يريد أبنا ينفع فى الحياة . .

سيذهب إلى كازينو البوسفور ليلتقى بالزعماء أمثاله . وفى المساء سيذهب إلى جريدة الوفد وحدثهم عن التعذيب الذى تحمله مع الطلاب والضرب الذى تلقاه .

وستنشر الجريدة الخبر . ولكنها لن تقول إن الذى أبلغها أخذنا مصطفى كامل ومحمد فريد . إنما فلان الفلانى رئيس الشبيبة الوفدية . وإنه عذب وضرب لأنه وفدى . والوفد وحده هو حزب الأمة ولا حزب غيره .

أما الشعب الذى سهر الليل ليرعى أبناءه وضحى بكل ما عنده لكى يحرس أولئك الأبناء ويسعدهم . . فلن يذكره أحد بكلمة .

دائما سيذكرون أن النحاس باشا اهتم بالأمر . وأخذ أول قطار إلى القاهرة لعقد اجتماع الحزب لدراسة الموقف والعمل على إطلاق سراح . المعتقلين المعذبين .

والذى سيحدث كذلك أن النحاس باشا لن يغادر اسوان أو شمس أسوان . سينتظر هناك لعل المستر سمارت يترك الأقصر إلى اسوان ليكمل عشرة الطاولة هناك . وكلها لعبة سياسية . .

البقية فى العدد القادم